حوار مع شاعر - ٢-

محمد القيسي: كيف آل اللهب القديم إلى رماد؟

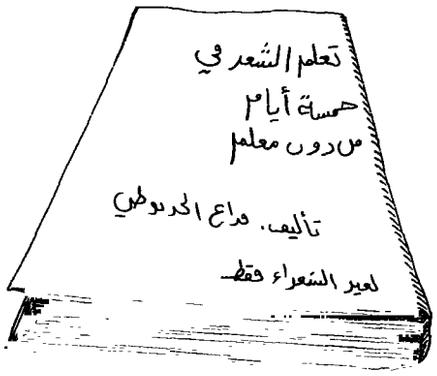

حاوره في عمان: زياد العناني

لا الحكومة معنية بتغيير فهمها للثقافة. ولا المجتمع قادر على نسل نفسه من وهاد ثقافة الاستهلاك المزتوت فيها

هناك دوماً شعراء وكتّاب موظفون لتجميل الأكذوبة واشاعة الخراب

أفكّر جدياً بالرحيل وترك هذه الساحة المنكوبة بأمراض عديدة

محمد القيسي شاعرٌ وجوّالٌ لا يملك غير حقيبته، مرة تراه هنا ومرة هناك.

عمان، لندن، بيروت، فاس، الرباط، غزة، رام الله: هذه بعض الأماكن التي عاش فيها، والشعر مغامرته الوحيدة. القيسي، هذا الاسم القديم والمتجدّد الذي يحارب «الجيلنة»، ظلّ بيننا.. بلا بطركة. لم يحارب الابن ولم نقتله، ويعجبنا أنه ما انفكّ منفتحاً على عوالم التجريب في القصيدة والرواية والنصوص السردية. هو الآن غاضب وممرور من جملة الخراب التي تعمّ الساحة الثقافية المحلية والعربية، ومن «كيدية» النقد ومصطلحاته التلفيقيّة، ومن كل منصّات الإطلاق التي تعطّل الشعر. صدرتْ أعماله الشعريّة في بيروت مؤخراً، وذلك في ثلاثة مجلدات. لكل ذلك رأينا أن نطرق عليه باب عزلته الأخيرة في عمان التي تلت سنوات إقامته في لندن لمحاورته.

ز.ع.

*** يُلاحَظ انسحابُك وامتناعُك عن النشر في الصحف المحليّة. أهي أزمة خاصة، وما هي المؤشّرات التي تدفعك راضياً إلى مثل هذه العزلة؟**

ـ تَذْكُر، ربما، أنّني في نيسان الماضي وضعتُ حداً لانسحابٍ طويلٍ من شؤون «رابطة الكتاب الأردنيين»، وذلك بتقديم استقالتي من عضويتها، في إطار إعادة النظر الشاملة في تجربة الكتابة والحياة. وقد وضعتْني إعادةُ النظر هذه على تخومِ عاليةٍ من الصدق، عبر مواجهة حقيقيّةٍ مع الذات والواقع الثقافيّ، إذ ما يعني مواصلةُ انتسابي إلى جمعية ميتة؟ وشفعتُ ذلك بالإشارة إلى حالة الموات والفوضى الساكنة، وافتقار «الرابطة» إلى وجودِ حاضنٍ حقيقيٍّ يلتفت إلى حركة الإبداع المحليّ، ظواهرَ وأفراداً. وكما لو أنّ هذا الأمر كان طبيعياً، فلم تُشعرني «الرابطة»، حتى الآن، بقبولها هذه الاستقالة أم لا، ناهيك عن مناقشتها التي يحثّ عليها النظامُ الداخليُّ للرابطة! قلتُ لا بأس، إنّ الرابطة بهذا تعطي الدليلَ على صحة الحيثيات الواردة في كتاب الاستقالة، وترفّعتُ عن المساءلة.

أوردتُ ذلك لأشير إلى حجم الخلل واللامبالاة لدى مؤسساتنا الثقافيّة. فأنتَ إنْ حضرتَ أو غبتَ سيّان، بغضّ النظر عن اسمك أو مكانتِك الأدبيّة، فما لهذه المؤسسات ووجع الرأس؟! ولا تظنّ أنّ هناك اختلافاً في المواقع الأخرى لا يدعو إلى الانسحاب والامتناع عن النشر. فأنت ترى كيف تُمَيَّع الأشياء، وكيف تُشرع أبوابُ النشر للكتابة وشبهِ الكتابة، وكيف تسود الرداءةُ في المخطوط والمنشور، وكيف يشوّهون الشعر، مثلما يشوّهون البيتَ والبلدَ، ويمسخون صورةَ الشاعر الموسومةَ بالأنفة والكبرياء والتمرُّد إلى صورة الشاعر المرتزق، أسيرِ العربة والعطايا وتعدّدِ الوظائف. لكأنّهم ذئبيون أكثرَ من الذئاب! هناك دوماً شعراء وكتّابٌ موظّفون لتجميل الأكذوبة وإشاعة الخراب، وهؤلاء هم المحدودو الموهبة، كالفطر السامّ ونباتِ العلّيق يزدحمون بأنفسهم، دون أن نزاحمهم حلماً ومصيراً. فكيف لي أن أكون في صفحة هؤلاء؟ كيف أؤسِلبُ الغضب، وقد أثاره السؤالُ، وأنا الرهيفَ، بينما هم يهينون الكتابةَ، ويكسرون عنفوان القصيدة، على الأبواب التي يقفون أمامها رجاءَ مكاسبَ عابرةٍ، وهم يعون جيداً ما يفعلون، مُغذّين هذه النارَ التي تأتي على قيم الحياة اللألاءة النظيفة بقشّ السلوك الوضيع؟ ولا بأس أن يصطرعوا فيما بينهم على الغنائم! ألا ترى مدى وجوب هذه العزلة التي وصفتَها؟!

*** أنت إذن منسحب لأنك لا تريد مجاملةَ هذا الخراب، أو مجاورتَه، أو القبولَ بالدخول إلى خانة «المسكوت عنه». فماذا تريد؟**

ـ يهمّني بدايةً أن أؤكّد أنّي ضدّ فكرة امتهان الجمال، وامتهان الكتابة. على أنّي لستُ ضد رغبات الناس في أن يصبحوا شعراء أو كتّاباً، وأن يقرأوا أسماءهم في الصحائف السيّارة على أغلفة الكتب، أو أن تنفلق الأرضُ مثلاً عن ظواهر خرافية، فتَدْخلَ العشيرةُ والقبيلةُ أو الشعبُ كلُّه في خانة الكتّاب. لكنّني أريد أن أقرأ ـ إذ أقرأ صحافتنا الثقافيّة ـ شعراً أو إبداعاً يرجف روحي، ويملؤني بالمتعة والفرح، أن يهزّني ويصيبني بالغيرة، لأكتب بدوري. وأريد أيضاً أن لا تتشوه ذائقةُ الناس، على ما هي عليه من تشويه، وأن لا تَحْرفها مثلُ هذه الكتابات عن قيم الخير والجمال في الكتابة الحقيقيّة الغائبة.

إنّ أجمل الشعراء الآن لا يَنْشرون قصائدهم، وينسحبون. ألا توجِب هذه المسألةُ قلقَ المسؤولين عن النشر، فيتساءلون لماذا؟ أم تراهم مرتاحون لهذا الغياب المجازيّ؟ أقول «المجازيّ»، لأنّ هؤلاء الشعراء حاضرون كأسماء، وحاضرون حدَّ الفضيحة.

*** إلى هذا الحدّ أنتَ غاضب وممرور؟**

ـ دُلّني على شاعرٍ حقيقيٍّ في الساحة غيرِ ممرورٍ وغاضبٍ، شاعرٍ لا يتذمّر مما يجري، من هذا السياق العامّ للخراب: من اختلاط للمفاهيم، إلى غياب الرؤيا والقياس؟ إنّه طردٌ منظّمٌ لقيم الجمال واحترام الإبداع الحقيقيّ، لصالح هذه الفوضى التي لا تَعْرف خجلاً.

*** ماذا يَشْغلك الآن وكيف تجترح أفقك؟**

ـ يشغلني البحثُ عن مكانٍ آخر. إنّي لأفكرُ جدياً في الرحيل، وتركِ هذه الساحة المنكوبة بأمراضٍ عديدة، إلى مكانٍ وساحةٍ أخرى، محاذراً هذه المرّةَ الوقوعَ تحت سطوة الحنين ثانيةً. وأعرف أنّ هذا المكان ليس هو رام اللّه أو غزة، مثلما ليس هو لندن. أريد مكاناً يوفّر لي الحياةَ والكتابةَ، من أجل أن لا يتملّكني الموتُ هنا كاملاً.

*** كيف إذن تتم تنقيةُ الساحة الثقافيّة من هذا العثّ السائد، واختلاطِ المفاهيم، وضمورِ العقل النقديّ المعرفيّ؟**

ـ ينبغي، على الأقل، أن تدبَّ العافيةُ في جسد النقد العليل، ويفيقَ مَنْ يتصدّون للعملية النقدية، فيذهب النقدُ إلى دوره المسؤول، ويخاطب المجتمعَ، وإلا ستتسع الهاويةُ ونذهب أبعدَ من المتاهة. لماذا يعفّ هؤلاء عن نقد الرداءة ويغمضون الطَّرْفَ عن الجميل، حتى ليبدو هذا الجميلُ منبوذاً أو مطروداً في بريّةٍ يختلط فيها الجميعُ، ولماذا لا يشيرون إلى

هذه المعضلة؟ فلا الحكومة معنيةٌ بتغيير فهمها للثقافة ولدور الثقافة في نهوض المجتمعات، ولا المجتمعُ بدون حركةٍ وعيٍ حقيقيّةٍ قادرٌ على نشل نفسه من وهاد ثقافة الاستهلاك المزتوت فيها. فليرتَع الجميعُ، إذن، بنعمة الصمت، ولِيَ العنق واللسان!

يبقى علينا، كمبدعين، أن نكتب قصيدتنا الجميلة والصادقة، ونصُنّا المنزَّه الخارجَ على القطيع، وأن ندافع عن الكتابة وشرطِها الجماليّ، وأن لا نسقط أو نسكت.

*** ما دمنا في مساءلة النقد، أرى أنّ الناقد عبد اللّه الغذامي أنّثَ قصيدة التفعيلة، وعزّ الدين المناصرة أطلق على قصيدة النثر تسمية «الخنثى». فما هو رأيك في هذه التسميات؟**

ـ أُنظرْ إلى مثل هذه الانشغالات! إني لأراها أوصافاً تنطوي على فذلكاتٍ لغويةٍ، غيرِ دقيقةٍ أصلاً، وغير نقديّة. ولقد تثير هذه التسميات مكتشفيها ودهشتهم، لكنّها لا تعني لي شيئاً، على ما فيها من محاولةِ اجتهادٍ نقديٍّ فيما يتعلّق بمسألة تأنيث القصيدة لدى الغذامي. أما الصديق المناصرة الذي يورِّط نفسَه بالدخول في هوامش مناوشات صحافيّة لا ترقى إلى مستوى المعارك الأدبيّة، فأوّلُ ما يتبادر إلى ذهن القارئ مِنْ توصيفه هذا أنه رَمَزَ إلى القصيدة بالمرأة وأعطى صفةَ «الخنثى» لقصيدة النثر؛ و«الخنثى» ـ كمفردة ـ تستدعي صفاتٍ أخرى مرادفةً لها، كالذكورة والأنوثة أو المرأة المخْصِبة والمرأة العاقر. فعلى أية قصيدة يا ترى سيلقي المناصرة تالياً صفةَ «العاقر»، أو «المخصبة»، أو غيرِها من المترادفات مثلاً؟

هكذا نرى إلى هشاشة مثل هذا التوصيف، بسببٍ من محدودية الرؤية المقتصرة على الشكل الخارجيّ للمنتَج الإبداعي، وهو قصيدة النثر. أما لحمةُ هذه القصيدة وسداها، أو ما يفعله بعضُ نماذجها فينا، أو لماذا يذهبُ إليها شاعرٌ ويلتزم بكتابتها كتعبيرٍ عن الذات والرؤيا، فلا شيء من هذا على صعيد المقاربة. إنّ غضب هذه الكتابات وصبَّ النقمة على شكلٍ فنيٍّ ما، كشكلٍ وحسب، يجعلاننا نتساءل حول ركيزة النقد الأساسيّة، عن وحدة الشكل والمضمون، وأين صارت في مقولة المناصرة هذه!

*** متى كتبتَ أولَ قصيدة نثر؟**

ـ لا يعنيني أن يُعرف متى كتبتُ أوّلَ قصيدة نثر، أو أن أَذْكر تاريخاً محدداً لعلاقتي بهذا الشكل أو غيره. بل يعنيني أين هذه القصيدة الآن على صعيد تجربتي الشعريّة وأينني منها؟ أهي حاضرةٌ وتحتفظ بعصبٍ جماليٍّ مّا جاهزٍ لاختبار الزمن، تفيض بماء العافية وإيقاعها الخاص، عاكسةً لهفةَ الروح والقلب إلى نهارٍ عادلٍ وغناءٍ أليف؟ أم أنّها تفتقر إلى هذه الأقانيم كلها، مُحتلةً بجفاف اللغة والأحاسيس مثلاً؟ ذلك ما يهمني.

على أنّي أذكر أنّ لي نصوصاً قديمةً، كتبتُها إبّانَ لم أكن أعرف الوزنَ والعروضَ، إلى جانب نصوص أخرى بلا وزن لكنّها تلتزم القافيةَ أواخرَ الأبيات، قبل أن أطّلع مصادفةً في العام ١٩٦٣ على أعداد من مجلة **شعر** البيروتية، وقبل معرفتي بالماغوط وصايغ والحاج. لكنّ ذلك كان أُهمل ونُسي، إذ وصلتُ واعياً قصيدةَ التفعيلة التي رحتُ أنشرها منذ العام ١٩٦٤ في مجلة **الأفق الجديد** المقدسية، و**الشعر** القاهرية، ثم الآداب البيروتية لاحقاً. ولم تُصِبْني قصيدةُ النثر بلهبٍ ما أو رجّةٍ، حتى قراءتي لكتاب **عصر السريالية** بترجمة خالدة سعيد في النصف الثاني من الستينيّات، فأحدث فيَّ بلبلةً مفاهيميةً حول معنى الشعر والكتابة، ولاسيما نصوص ماكس ارنست، وهو فنان تشكيليّ، إضافةً إلى نصوص فائقة العذوبة لتريستان تزارا زعيم الدادائية، التي وصلتْ على أنقاضها سرياليةُ اندريه بروتون. بعد ذلك دخلتْ قصيدةُ النثر دائرةَ اهتمامي، على صعيد القراءة والمتابعة، موضوعةً ومترجمةً، إلى أن حلَّتْ بعضُ نماذجها في بعض دواويني في السبعينيّات، واستقلّتْ بها دواوينُ أخرى مطلعَ الثمانينيّات، وبلغتْ خمسةً، ضمّها المجلدُ الثالث من أعمالي الشعريّة... هذا غير القصائد المتناثرة في كتب أو دواوين شعريّة أخرى.

*** ولكنّ عز الدين المناصرة يقول إنّه أولُ مَنْ كَتَبَ هذه القصيدة في الساحة الأردنيّة، وإنّ مَنْ كتبوا هذه قبل أن يكتبها هو كانوا يَقْصدون كتابة قصيدة تفعيلة فجاءت «مكسَّرةً» لا قصيدةَ نثر؟**

ـ للصديق المناصرةً الحقُّ في أن يَزعم ما يَزعم، ويؤرِّخَ لتجربته كيفما يشاء ويمليه عليه ضميرُه الأدبيّ. شخصياً لا أعرف شعراء كتبوا هذه التفعيلة «المكسَّرة» قاصدين قصيدةَ النثر، مثلما لم أُصرِّحْ أنّني أولُ مَنْ كتبها هنا. أكْره أساساً كلَّ أفعالِ التفضيل التي تكون على غرار هذه الصيغة التي يحبها المناصرة. إنّ الأولويّة ليست حكمَ قيمةٍ؛ فليس كل قديم جميلاً بالضرورة، أو صالحاً للحياة.

*** يشير عدد من النقّاد إلى تراجع دَوْر الشعر وفعاليّته، لصالح أشكالٍ تعبيريّة أخرى. ويُرجعون ذلك إلى استقالة الروّاد، أو عجزهم عن الابتكار، أو موتِ بعضهم، أو غياب البعض الآخر في الصمت. فكيف ترى الصورة؟**

ـ هناك ما هو أبعدُ من هذا الزعم، زَعْمِ تراجُعِ الشعر لصالح أشكال

تعبيريّة أخرى. ذلك أنّ ما من جنسٍ إبداعيٍّ عربيٍّ يحتلّ صدارةً ما، أو يحظى باهتمام وافر. بل إنّ المشهد الكتابيّ ينفتح على فراغٍ مكين، والقراءة نفسها غدتْ مَعيفَةً ومهجورةً تقريباً، بعد هذا الكسر والاختلال اللذين أصابا سُلَّمَ القيم والمفاهيم والأفكار. لكأنّ ريحاً غربيةً أصابت قلب الحياة، فاعتلَّتْ، فكان هذا «التغييرُ» التدريجيّ؛ وأنا لا أعني التغيير بالمفهوم الهيجليّ أو الماركسيّ، وإنّما «التغيير الذي يعني تحوُّلاً من جهة إلى أخرى: من الأمام إلى الخلف، من الخلف إلى اليسار، من اليسار إلى الأمام» بعد اندحار الأيديولوجيا أو تحوُّلها إلى علم الصورة (الايماجولوجيا) تحولاً تدريجيّاً عاماً في هذا الكوكب، كما يشير كونديرا، لنجدها على أعتاب زمنٍ كالح، ليس هو زمن الآلة والسرعة والتكنولوجيا ـ فنحن كعرب خارجه تماماً ـ، وإنّما هو زمن انعدام الجاذبيّة. حتى المرأة التي كانت تلوِّن الأعماق، لم تعد تمنحنا الأرق أو سهر الليل. الحياةُ نفسها أفقدتِ الأشياءَ جاذبيتَها، أو عطَّلتْ فينا الحواسَّ، فما عادت تجذبنا الكتابةُ ولا القصيدةُ. لربَّما انتهى ذلك الهوسُ الجماليّ بالأشياء والأشكال، لصالح هذا القلق والانشغال الحياتيّ وراء تأمين شرط العيش، ودرءِ الخوف، والذهابِ في تأمل فصول هذه التجربة المرة، وكيف آل اللهبُ القديمُ إلى رماد، وانحطم الموقد... مثلما صار السؤالُ عن جدوى الشعر والكتابة واقعاً، بعد انفراطِ عقدِ الوهم، وانقلابِ الحياة على نفسها.

هكذا، لا مَنْ غيّبهم الموتُ أو لَفَّهم الصمتُ، ولا استقالةُ الروّاد وعجزُهم عن الابتكار، علامةٌ أو سببٌ لغياب فعّالية الشعر وقصوره في أن يلعب ـ إلى جانب الأجناس الأخرى ـ أيَّ دورٍ في الإنسان والواقع الذي تم تغييرُه سلبياً كما أسلفتُ. الشعر الآن مرآةُ هذه الخيبة، حاضرٌ ومبعثرٌ هنا وهناك، في بضعة أسماء عربيةٍ قليلةٍ (ولا ضير في قلّة العدد)، وهو حضور يتجلّى في رصد هذه الخسارة والمرارة التي تغشى وجه الحياة. لكنّ هذا الحضور يُطلّ مشمولاً بالعزلة وبخططِ العتمة التي تَحْبكها ـ واعيةً أو غيرَ واعية ـ وسائلُ الإعلام الرسمية، من الفضائيّات العربيّة إلى صفحات الثقافة الأسبوعيّة المحليّة والعربيّة أو الغالبيّة العظمى منها، وهي تفسح المدى لهبوب ريح الرداءة المنهجة.

*** بعد أن نلتَ جائزةَ البابطين للإبداع الشعريّ بماذا تشعر الآن؟**

ـ لا تشكِّل هذه الجائزة أو أيةُ جائزةٍ أخرى سقفَ طموح الشاعر ـ وأعني الشاعرَ المتروعَ بعذابات القصيدة والكتابة، المحدِقَ في الأبعد ـ، مثلما أنّ الشعر ليس وصولاً إلى نقطة أو حدّ. الشعر لمجنونه متاهةٌ مُعذِّبةٌ، تلفّ حياتَه القصوى، فلا يلهيه زخرفٌ ما، ولا شيء يمنحه الرضا غير أن يُمْسك بأعناق القصيدة، قصيدةً تلو قصيدة. بل إنّ هذا الرضا نفسَه لا يدوم، إذ تعود جرثومتُه، وأعني الشعرَ، لتفعل هذا الحِراكَ الدائمَ في الروح، فلا تهدأ أو يشفى لها غليلٌ منه.

الجائزة هي وهلتُها الأولى، وسرعان ما يذهب بريقُها وذهبُها. وهي تأخذ أهميّتها، غالباً، من الحاجة إلى معادِلِها الماديّ، إذ تفكُّ ضِيقَ الشاعر، وتعملُ على أن يمتلئ صدرُه من جديدٍ بهواء الحياة. فهو مريضُها الأبديُّ بامتياز، وما القصيدة أو الكتابة ـ كما أرى ـ إلا علاجُ هذا المرض، وصداه العشقيّ.

بماذا أشعر الآن؟ أشعر أنّ موجتي تمتدّ، وأنّ وحدتي عاريةٌ أمامي، في طرادي الطويل المتواصل لروح هذا العصفور الذي ينطنط قدّامي، وأكاد أمسكه، حتى ليكاد يقرب عمرُ هذا الطِّراد من أربعين سنة. ما أَشْبه الشعر بطير الخرافة هذا، الذي عرفتُه في طفولة الحقول، وركضتُ خلفَه مراتٍ حتى ابتعدتُ عن حوش الدار، وخفتُ! وها نحن لا ننفكّ عنه الآن، حتى إذا ما التفتنا برهةً إلينا، وَجَدْنا أنفسَنا وقد وَصَلْنا الدرجاتِ الحرجةَ على السلّم الموصلِ إلى سدرة المنتهى، ولم يتبقَّ لنا غيرُ القصيدة الأخيرة... التي لن نكتبها.

*** عدتَ إلى دائرة الشعر بعد انقطاعٍ معلن. السؤال: كيف انقطعتَ، وكيف عدتَ؟**

ـ تعرف أنّ وظيفتي هي القصيدة، ولا وظيفة لي غيرها. أخفق عمري وأُنفقه في التجوال، فلا أقيم في المكان الواحد إلا قليلاً. المكانُ الواحد مثلُ المرأة الواحدة: سيجيء حينٌ ولا يظلّ لها بريقٌ. هكذا أُبعثرني، باحثاً للقصيدة عن سقفٍ ومناخ وصُوَر، يدفعني توتّري الخاصُّ وقلقيَ الأرضيُّ لأرى أكثر، وأعرف أكثر، مؤْمناً أنّ هذا الشوط القدريَّ القصيرَ الممنوحَ لنا من الحياة وفيها لن يتيح لنا الدخولَ في الأزمنة القادمة، ولن نراها. فلماذا لا ننهب في الأرض أيامَ هذا الشوط وساعاته، كي لا نَذْبل مرارةً في سؤال الوقت والاحتجاجِ على هذا المصير البشريّ؟

إني لأندفع في القصيدة، مثلَ اندفاعي في الأمكنة، وأرى إلى حصادي في المحطات القصيرة التي أقف فيها وأرتاح، وأرى ما تفعل بي هذه القصيدةُ. أحسّ أحياناً بخذلانٍ ما، لا لأنّي أعقد الرهانَ عليها في تغيير العالم مثلاً، أو تخفيضِ درجات الحرارة والرطوبة. ومع ذلك فليست قصيدتي منبتَّةً عن إشكاليّاتِ الحياة، أو القضيةِ التي تسكنني وتشكِّلُ محورَ حياتي. وإذ أطيل النظر في انكساراتنا العامة، وفي هذا المآل الأسيف، من كآبة القلب حتى ضياع

البلدان، يعتريني غضبٌ ما؛ والغضب الحزين مني، وعلى القصيدة، وأعترف بالتعب، أعترف بالرغبة في هجرانها، واللجوءِ إلى أحضان أجناس أخرى.

بعد **كتاب الابن** السرديّ، والشغل في **الحديقة السريّة** روايتي، أو سيرة المرحلة اللندنيّة من تجربة الحياة، رأيتُني مأخوذاً بشكلي الجديد هذا، وأنا أجمع وأنسّق مساحاتِ هذه الحقيقة وفراغاتها بشريطٍ من النثر الناصع. لقد سَحَرني هذا التعبيرُ السرديُّ، بقدراته الفائقة على رصد التفاصيل والخفقات والرؤى والأحلام والمخاوفِ والفرح القصير وكلّ شاردٍ وعابر. قلتُ: إذَن، أفكّ ارتباطي مع القصيدة، وقد عذّبتني طويلاً. أفكّهُ ولو إلى حين، وأُعطيني لشكلٍ آخر، وأرى أين يذهب بي هذا الشكلُ وماذا أنا حاصد منه. وما إن قلتُ ذلك في حوار، حتى دار النقاش، وقيل: هل يمكن الاستقالة من الشعر؟

انصرفتُ، إذن، عن كتابة القصيدة، التي ظلتْ تحكم نسيجي، وتُصرِّف شؤونَ حياتي وحساسيتي تجاه الأشياء، كتابةً وقراءةً. وإذ مرّ ما يقرب العامُ عليَّ دون كتابتها، عراني خوفٌ ما، خوفُ الصمت، رغم اشتغالي، وإنْ كان بطيئاً، في نص **الحديقة**، وكأنّ القصيدة تعاقبني على الهجران. حاولتُ على مدى أسابيع، فما كتبتُ مقطعاً. أحسستُني يابساً، ولا يغرِّدُ فيّ شيءٌ، حتى وجدتُني في تموز ١٩٩٨، في غزة، منسيّاً ووحيداً في الفندق المُطِلّ على بحرٍ مشطور، أعارك من أجل حقوقي الواضحة والبسيطة ركاماً من الأخطاء واللامبالاة بمصائر الناس. رأيتُ حجمَ الأخطاء، وفجيعتي بالوطن والأصدقاء. كنتُ أعيش حباً يلفظ أنفاسَه الأخيرة على عتبات البعد، عابراً قَيْظَ غزةَ وانكساراتِها وجراحاتها القديمةِ الجديدةِ، وصولاً إلى مقهى «ديليس». في هذا المقهى الأنيق المرفُه القائم وسطَ كلّ هذا الخراب، رحتُ فجأةً أستحضر البعيدةَ وأنادي «حمدة» لتبحث معي، في المكان الأول، عن أيقونات الصافية، ولتغفرَ لي أيضاً:

فلتغفرْ لي حمدةُ هذه الحيرةَ،
ولتغفرْ ميثاقَ شتاتي في البلدانِ،
لتغفرْ لي رغبةَ قلبي
في أنْ أُشْرِكَها ترحالي
ولتغفرْ هذا المقعدَ في «ديليسَ»
أنا وحدي وأجوبُ هناكَ، ووحدي.
بينَ هنا وهناكَ، ولا يتوزَّعُ في أسمالي
غيرُ تهدُّجِ صوتي في
سُلَّمِ قلبي الممدود إلى ظلماتِ الأعماقِ،
لتغفر حمدة لي نقصانَ كمالي.

وبدأتُ أتدفق قصائدَ يوميةً، ما بين الفندق والمقهى والبحر، ومدينة رام اللّه، والبيرة، وقوفاً بباب المخيم، مخيم الجلزون، مخيمي الذي كسرتني رؤيتُه. هكذا أنجزتُ **الأيقونات**، أواخرَ كانون الأول ١٩٩٩*، في أرض الروح، التي يطوِّقها الاحتلالُ، ليشكِّل مع سابقيْه **ناي على أيامنا** (١٩٩٦) و**ماء القلب** (١٩٩٨) ثلاثيةً شعريّةً أعطيتُها عنوان **مخطوط في العشق** يصدر قريباً في سلسلة «آفاق عربيّة» في القاهرة، ثم لأفرغ من بعدُ، منصرفاً إلى **الحديقة السريّة**.

*** لكنْ ألا تعتقد أن السرديّاتِ تشكّل تعويقاً للنصّ الشعريّ؟**

ـ أكاد لا أفرِّق بين الاثنيْن. فمنذ **أرخبيل المسرات الميتة** (١٩٨٢)، **وعائلة المشاة** (١٩٩٠)، **وكتاب الابن ـ سيرة الطرد والمكان** (١٩٩٧)، وحتى **الحديقة السرية**، تتواشج أشكالُ الكتابة عندي ويتضافرُ الشعرُ والنثرُ، ليشكّلا نسيجاً نصياً جديداً ومختلفاً عن شغل القصيدة، إذ تتداخل لغتهُما، حتى ليفيض النثرُ بالشعر، ويأخذ الشعرُ سرديةً مشهديّةً على قرابةٍ من المسرح الروائيّ. من هنا لا أرى في هذا الشكل الكتابيّ، على تعلُّقي به، أيَّ تعويقٍ للنصّ الشعريّ الخاصّ، بل أراه تمريناً وعاملاً أساسياً في إثارة الوجدان وتحريكه. فكثيراً ما كنتُ أتوقف عند جملة نثريّة، أو كلمة، لتُسْلِمَني إلى قصيدة كاملة. إنّ ما يؤجِّل ظهور **الحديقة السرية** ككتاب حتى الآن هو مثلُ هذه الإحالات، التي لا مهربَ لي منها، والتي تأخذ أحياناً وقتاً ليس بالقصير؛ الأمرُ الذي يُحدث داخلي قطيعةً نفسيّةً مع أشغال **الحديقة**، فأَرْكنها جانباً، إنّما لأعود إليها، بعد أن أُفرغ جسدي كاملاً من توتراته إزاء القصيدة. وهكذا أرى في ممارسة السرد تخصيباً لقصيدتي، وهو تخصيبٌ غنيٌّ ونافذٌ، لا معوِّقٌ.

*** لديّ ملاحظة. لماذا لم تركّز الأضواءُ والإعلامُ الفلسطينيُّ على قصيدة محمد القيسي، بالكثافة التي ركّزتْ بها على الشاعر محمود درويش مثلاً... مع أنّ أجواء قصائد درويش قبل الثمانينيّات، وأثناء قسم من هذه الثمانينيّات، كانت أجواءً عاديةً وتنتمي إلى الخطاب السياسيّ المباشِر، بعكس قصائدك التي لم يلتهمها «الغرضُ» بل ظلت طافحةً بالروح الشعريّة، مع استثمار هذا الغرض ضمن القيم الجمالية للقصيدة؟**

---

* ـ نشرت الآداب قصائد منها في العدد ١١/١٢ من العام الماضي.

ـ ما دمتَ طرحتَ هذه الملاحظة ـ السؤال، فلأكنْ صريحاً معك في القول. منذ قصيدتي الأولى، وأنا أعرف أني صوتُ نفسي وموضوعُ هذه القصيدة، لا صوتُ تيارٍ أو جهةٍ. ولهذا لا يشغلني مثلُ هذا الأمر، ولم يشكّل لي في يومٍ ما هاجساً.

ولعلّ ملاحظتك تجيب على نفسها في قسم منها. فما حاجةُ هذه الجهة أو تلك إلى التركيز على نصوص تحتشد بأبعاد المأساة العامة وعذابات الذات، إضافةً إلى ما تنطوي عليه هذه النصوصُ من رؤى والتماعات نقدية لهذا الواقع، بكل رداءاته وعجزه؟ ثم ألا ترى أنّ ذلك قد أعفاني وأعفى قصيدتي من التبعيةِ شبهِ القدرية للخطاب السياسيّ المباشر؟ بهذا أضْمن حريةَ هذه القصيدة، حين تدير وجهَها عن السياسيّ ولا تستسلم له، فلا أدخلُ معه في حوارٍ نفعيٍّ، هو بالضرورة تواطؤٌ مفضوح ومسكوتٌ عنه منذ سنوات طويلة؛ ذلك أنّ ثمن مثل هذا الحوار سيكون القصيدة، ويكون دمَ الشعر الحقيقيّ الذي تحتله السياسةُ، وتغيُّبُ الجوهريّ فيه. فالسياسيُّ يضمّ المبدع إليه لخدمة أغراضه المحدَّدة فحسب، لا إيماناً بأهميّة هذا المبدع أو دورِ الإبداع نفسه، إذ سرعان ما يَلْفظه عند أول احتكاكٍ سلبيّ؛ فهو ليس أكثرَ من موظفٍ مطيع في الخدمة. وكلُّ شاعرٍ، معنيٌّ بحريّة قصيدته، لا بدّ وأن يشيح النظرَ عن كل ذلك، وأن يُصغي مخْلصاً إلى نداء الذات والإنسان فيه، لا إلى صوت منافعه الدنيوية. هذا هو مفهومي الخاصّ لاستقلاليّة الشاعر والقصيدة عن أيّة تبعيّة، مهما كان شكلُها ونبلُها، وعلى ضوئه حفرتْ قصيدتي مسارَها الطويلَ المحفوفَ بالمعاناة والثقة العميقة بالشعر والكتابة.

وللعلْم، ملاحظتك هذه ليست بالجديدة عليّ. فقد أُثيرت منذ سنوات بعيدة، ولعلّ مِنْ أوائل من أثاروها ياسين رفاعيّة في مجلة الدستور اللندنية ـ ١٩٨٨/١/٢٥، حين كتب: «ليس هناكَ شاعرٌ فلسطينيٌّ ظُلِمَ كما ظُلِم محمد القيسي، إذ عمدت الأجهزةُ الفلسطينيّةُ دائماً إلى توجيه الأضواء إلى الشعراء الفلسطينيّين الموهوبين. لكنّ محمد القيسي نال دائماً ظلالَ هذه الأضواء. لماذا؟... ربما لأنّه لم ينخرطْ في تنظيم معينٍ، لأنّه أراد أن يكون لكلّ فلسطينَ؛ وما التنظيماتُ إلا صورةٌ عن الانقسام الفلسطينيّ، كما هو الانقسام والتشتُّت العربيّ الذي انعكس حكماً على هذه التنظيمات».

وليس بالضرورة أن أرى في ذلك ظلماً، مثلما لا يعني أنّني أتبنّى مقولة الكاتب إذ أشير إليها. لكنْ في نهاية المطاف، هل تراني شكّاءً أو حزيناً لذلك أو غاضباً؟ إنّ الشارع ـ كما قلتُ منذ عقدين ـ أجملُ من سقفٍ أو مكتب؛ وربما قصيدتي حاضرةٌ هناك □

عمّان

محمد خليل الداعوق

M.K.D.

شركة تضامن ـ تاسست ١٨٨٥ ـ سجل تجاري رقم ٣٠

جميع أصناف الورق والكرتون: ورق طباعة
كوشيه ـ ورق تصوير ـ كرتون ـ ورق «NCR»

الصنائع ـ شارع علم الدين ـ بناية الداعوق ـ الطابق الأول
هاتف: ٧٣٧٧٨٥ ـ ٣٤٢٢٥٨ ـ ٧٣٧٧٨٦ ـ ٠١/٣٤٢٥٣١
فاكس: ٠١/٣٤٠١٣٨ ـ e-mail: dadaoukk@inco.com.lb

Branch Office:

INTERNATIONAL INC.
Est. 1988 - Paper & Board
3021 Owen Drive - Antioch
(Nashville), Tennessee 37013 - USA
Tel: (615) 641 3440
Fax: (615) 641 6650 e-mail: mkdint@earthlink.com